الفصل الرابع عشر

الجزاء

الحبيب هو الجزء الآخر من قلب أحبته، يحتفل لفرحهم، ويحزن لحزنهم، وضحكاتهم نغمة العمر الجميلة، وهمهم هو همه، يود لو يمحو كل نقطة كدر تحاول تلويث نقاء فرحهم وإطفاء وهجه، يود لو يحمل كل أدران الحياة الثقيلة عن كاهل قلوبهم لتكون السعادة ربيعاً متقداً طوال حياتهم.

شيء كهذا مستحيل التحقيق إلا بعد أن يجد نفسه مندفعاً لأجلهم ودون إرادة منه.

أقبل صباح اليوم الذي ستغادر فيه ضياء المستشفى، أسرع في القدوم من شقته مبكراً ليقابل طبيبتها قبل أن تدلف لغرفتها وتفحصها، فانتظر قدومها في القسم، ولما رآها مقبلة استقبلها قبل دخولها إلى مكتب التمريض، وسألها بسرعة:

-كيف حال ضياء يا سيدتي؟

ابتسمت له رغم أن ابتسامتها لم تبدُ كثيراً من خلف نقابها، فقالت لتطمئنه وهي تدلف المكتب وهو يتبعها:

-إنها في تحسن كبير، معنوياتها مرتفعة، بدت لي متفائلة بوجودكم قربها واطمئنانها لوصولكم بسلام من تلك الدرب الخطرة.

قال لها في قلق:

-نعم هي مطمئنة لذلك؛ ولكن ماذا عن إصابة وجهها؟ ألا يمكن إزالة آثارها؟! منذ أن رأتها بالمرآة وهي تحاول إخفاءها عمن حولها، تظن بأنها سترعب من يراها.

انتبهت لكلماته وعيناها تتأملان الملفات على طاولة القسم ويمناها تقلبها حتى وصلت لاسمها، وذاكرتها تسترجع المرات التي زارتها فيها، انتبهت بأنها فعلاً تغطيها خصوصاً حين يبعد عنها الساتر الشبكي، نظرت له، وقالت في حيرة:

-ولماذا تخشى الناس؟! هذا الأمر حدث رغماً عنها.

بسط شادي يديه وهو يقول في انفعال:

-أخشى أن تتدهور نفسياً ويصيبها الاكتئاب بسببها، سيدتي، هل يمكننا علاج هذا التشوه وإزالة آثار الحرق؟

تنهدت وقالت:

- لا أضمن لك جراحة تجميل محترفة هنا، لذا أنصحك أن تسافر بها متى ما سنحت لك الفرصة.

زاد توتراً وهو يرد عليها:

-لا أستطيع الآن، أعني... لا أدري متى سيتاح لي ذلك.

قالت له في حزم:

-إياك أن تعلق أملاً في علاجها هنا، أكرر عليك، سافر بها متى ما استطعت ذلك، وحاول أن تسرع قبل أن تصبح الندبة مستحيلة الإزالة، أما بشأن خوفها، عليها أن تعتاد على وضعها

إلى ذلك الحين لا أن تجعله عائقاً في طريق حياتها، لن أفحصها هنا إذن؛ بل أحضرها للعيادة بعد نصف ساعة حتى أستطيع التحدث إليها علّي أنجح في إقناعها وطمأنتها، تهيأ للمغادرة. امتثل لأمرها واتجه إلى الغرفة، طرق الباب ثم دخل، فوجد ضياء جالسة على السرير مسندة ظهرها إلى الوسادة، والضماد مسدلٌ على كل إصاباتها بما فيها إصابة وجهها مرتدية ثوبها الفضفاض، وإلى جانبها مها جالسة على الكرسي، ابتسمتا له حين أقبل، فسلم عليهما وهو يبادلهما الابتسامة، ثم قالت:

-أليس اليوم موعد المغادرة يا أخي؟

-بلى يا ضياء، لقد حان الآن، وطبيبتك تود فحصك في العيادة بعد نصف ساعة، هيا استعدي، وقد جهزت منزلنا الجديد أيضاً لاستقبالك.

ردت عليه في سرور:

-شكراً أخي.

قالت مها متظاهرة بالغضب:

-وماذا عني؟ هل نسيتني؟ المنزل لاستقبال ضياء فقط؟

أجابها مازحاً:

-أووه سامحيني أمي، أولية الاستقبال للمرضى.

ضحكت ضياء لمنظرهما، ثم قالت:

-البيت لن يزداد جمالاً إلا بوجودك يا أمي الحبيبة، فاعذري شادي على قوله، الرجال لا يستطيعون فعل كل شيء بالبيت.

رد في استنكار مصطنع:

-هاا... ماذا تقولين؟ هذا جزائي إذن!

ضحكت

-بل هي الحقيقة يا أخي، ثم أنه لن يطيب لنا المقام في أي منزل إلا بوجود أمي.

هز رأسه وقبّل رأس أمه وهو يقول:

-صحيح، لقد هزمتني يا ضياء، حماك الله يا أمي.

ردت مها مبتسمة

-رعاكما الله يا ولديَّ الحبيبين، وأدام الفرح في قلبيكما.

ثم أخذ يجمع أشياءهما ليضعها في السيارة، في حين ساعدت مها ضياء على ارتداء عباءتها، ولما انتهوا، نقلها شادي بكرسي متحرك إلى العيادة، حيث قابلوا الطبيبة هناك، وطلبت منها الرقود على سرير الفحص ففعلت ذلك بمساعدة شادي ومها، ثم ابتعد ليبقى عند الباب، بينما بقيت مها إلى جانبها، ووارتها الطبيبة بالساتر الطبي وكشفت إصاباتها، حدود الحرق شديدة الحمرة، وتلونت منطقته بالبياض الشديد في جهة، والداكنة في جهة أخرى، تخللتها ما يشبه الثقوب، تراءت لها الإصابة كنهش حاول التهام الجسد بنهم. الحرب أشد نهماً لأجساد البشر وأكثر عداء لكل كائن، هل هم حطبها الوحيد حتى يزداد سعيرها؟

رغم ما قبع في قلب الطبيبة من ألم، وما طغى على فكرها إلا أنها وضعت في قلبها أمل في عملية التجميل، فهذه الحروق العميقة لن تزال إلا بها ومعها ستزال مأساة مريضتها، سخرت من نفسها وهي تردد:

-هل أحاول التهوين عن نفسي أم عليها؟ هل حقاً نستطيع إزالة مآسي الحروب في وطنٍ ملامح التقدم تزحف فيه ببطء في وقت السلم، فما بالنا في وقت الحرب؟

على عاتقها الآن شد همة مريضتها كما طلب منها شادي ووعدته به، فإذا بها تنجرف إلى أحزان الحرب فجأة، هدأت من انفعالات نفسها وثبتت رغم كل اضطرابٍ أصاب فكرها، وابتسمت لضياء وقالت وهي تضمد إصاباتها:

-لقد تحسنتِ كثيراً يا ضياء، يلزمك الآن أن تواظبي على استخدام علاجك، والراحة في البيت، وأيضاً تجنبي تعريض الحرق لأشعة الشمس أو الماء الساخن، وزوريني لو احتجتِ لأي مساعدة أو استشارة، أو اتصلي بي رقم هاتفي مع أخيك.

هزت رأسها

-سأفعل.

ابتعدت عنها حين انتهت، وعادت لمقعدها خلف المكتب تدون في ملفها إجراءات المغادرة، في اللحظة التي نزلت فيها ضياء من السرير بمساعدة أمها وشادي وأعاداها لكرسيها المتحرك، فقالت الطبيبة لها:

-الإصابة ستتلاشى تدريجياً، لن يطول الأمر حتى تستطيعين الخروج والعودة لحياتك الطبيعية إن شاء الله، علمتُ من شادي بأنك فتاة مجتهدة وسيعمل على إلحاقكِ بالجامعة لتواصلي دراستك.

زمت ضياء شفتيها في ألم، وظهر طيف الحزن على محياها، حاولت مقاومة ما بقلبها بقوة، فقالت لها حين لاحظت ذلك:

-ما بك؟

ردت عليها بعد أن ابتلعت غصة كبيرة في حلقها:

-لا شيء سيدتي؛ ولكني... لن أستطيع فعل ما قلته، أو العودة كما كنت.

سألتها في استنكار:

-ما هذا الذي تقولينه؟!

أجابتها والدمعات تحاول الخروج من عينيها فمنعتها، فإذا بها ترتد لحلقها، وتغرق كلماتها التي خرجت متقطعة مكلومة:

-هذه الحرب اللعينة لم تكتفِ بتدمير بيتنا؛ بل بتدمير قلوبنا وقهر كل أمل فينا، من يعيد لنا الأمان الذي كنا نعيشه؟ من يعيد لي ما فقدته من جسدي؟ لن يستطيع أحد أن ينظر لوجهي بعد الآن، كيف سأقابل الناس أو الطلاب معي إن قررتُ دخول الجامعة، لا أستطيع فعل ذلك... أنا...

آلمتهم كلماتها، أصابت قلوبهم جميعاً، لم يحاول أحدٌ إيقافها عن بث ما بروحها المتألمة إلا مها التي هتفت وهي تربت على كتفيها مقاطعة إياها مغالبة كل أحزانها:

-ضياء يا ابنتي اهدئي، هذه مسألة مؤقتة، سنعمل على علاج إصابتك، هناك أمل في اختفائها، أليس كذلك يا دكتورة؟

نظرت للطبيبة، فقرأت ملامح الحزم على وجهها وهي تعقد حاجبيها وتقول:

-الأمل أولاً يجب أن يكون في أعماق ضياء، هناك من أصيب بحروق أشد خطورة منها، ومع ذلك كانوا يشكرون الله على نجاتهم، لن يستطيع أحد إعادة ما قلتِ؛ لكن أمك وأخاك بذلا وسيبذلان جهدهما لأجلك، أليس أجمل شيء أن يكونا بقربك رغم كل خطرٍ مررتم به؟ أكملي علاجك وأمر العملية مرهون بقدرتك على السفر للخارج، أخبرتُ شادي بذلك، لذا ضعي أملاً في قلبك بأن الله لن يضيعك كما حفظك وحفظ لك أهلك.

-نعم لن يستطيع أحدٌ إعادة أي شيء، خصوصاً حين تكون الإصابة أشد خطورة على القلب، على الروح، كيف نعالجها أو نتعايش معها؟ كنتُ فتاة جميلة، فإذا بي أصبح ذميمة مشوهة بين عشية وضحاها؟!

تمتمت ضياء لنفسها بتلك الكلمات وهي تهز رأسها محاولة إبداء اقتناعها بقول طبيبتها لتوقف جدلاً ترى بأن لا طائل في إطالته، فالأمل شهيد في قلبها، ولا سبيل لإعادة ميت للحياة.

شكرتها، ثم دفع شادي كرسيها وغادروا المستشفى الذي كان لا يزال مكتظاً بالجرحى والمرضى والنازحين، الحرب لا تزال مستعرة ولن تتوقف أناتهم ما لم تتوقف، أمل من كل قلبه أن ترفع كلمات الطبيبة روح أخته المعنوية، وتمنحها الأمل إلى اللحظة التي يجد فيها من يساعده في مسألة علاجها بالخارج.

بيد أن صدمته من سلوكها بعد عودتهم للشقة كانت كبيرة.

لما وصلوا لحي السلام وللشارع الذي فيها العمارة التي بها شقتهم، ظلت عيناها تطالعانها في ذهول وحزن، عمارة قديمة بعيدة كل البعد عن جمال منزلهم في عدن، تجاهل نظراتها وساعدها لتنزل من السيارة ثم تدلف العمارة وتصعد الدرجات، والألم والحزن يحفران آثارهما في ملامحها ويدميان قلبها...

(لن يستطيع أحد إعادة ما قلتِ)

تذكرت كلمات الطبيبة، فعلاً لا أحد سيعيد لهم أي شيء مما فقدوه، حبست دموعها فقط لأجل أخيها الذي بلا شك ناضل حتى يحصل على سكنٍ مناسب لأجلهم ولم يجد إلا هذا، كانت تتأمل كل شيء بها، والقهر يقتل كل جمال وكل أمل وكل رغبة في الحياة، تمنت في تلك اللحظة لو ماتت قبل أن ترى إلى ما آل إليه حالهم كيف كانوا ميسورين منعمين، فإذا بهم يصلون إلى رتبة الفقر ومرحلة التشرد، أدخلها لغرفة النوم حيث جهز لها فراشاً على الأرض وغطاء ومكاناً لراحتها، شكرته حين أجلسها عليه، وهي تتذكر مملكتها الصغيرة في عدن

التي اختفت دون رجعة، الدمعات كانت تذرف في أعماقها لتلهب جراحات قلبها، فتزيدها لهيباً ووجعاً.

منذ ذلك اليوم، آثرت الصمت والعزلة في البقعة التي رقدت بها.

تهتم بها مها حين ترى حالتها، ولا تتركها بمفردها، وحين تزورها نسوة من المدينة أو من النازحات لتؤنسها وتطمئن عليها تدعو ضياء لتسلم عليهن، فترفض لقاءهن، أو حتى الخروج للاستجمام قليلاً حين بدأت حالتها تتحسن تدريجياً، فلم تستجب لكل كلماتها.

أما شادي، فبعد استقرارهم مباشرة في سكنهم الجديد، بدأ يبحث عن عمل وتقدم بطلبه في أكثر من مكان ليلقى قبولاً بورشة في (الديس) ويعمل فيها صباحاً، ثم التحق بالعمل بسوق مركزي كذلك ليعمل بها مساءً ويؤمن بذلك دخلا جيدا لأهله، تمكن من ذلك بعد شهرين من إقامتهم واستطاع توفير نفقة بيته وعلاج أخته، ورغم عمله لم ينسَ أمرها، فاشترى لها كتباً لتحاول الانشغال بها، أو يحاول مناقشتها أحياناً كما كان يفعل والده فلم تستجب له أيضاً، وبقيت على حالة الصمت والسكون القاتلين التي قتلت روحه بها.

لم تفلح محاولتهما في التسرية عنها أبداً.

ظلت تتابع حالة إصاباتها وتزور طبيبتها بين الفينة والأخرى إن لاحظت مها أي غريب على الجروح أثناء معالجتها لها، فضياء فلم تكن تشكي من أي شيء وأبقت أذنيها مغلقتين تماماً عن نصائح من حولها وأسكنت الألم روحها كما حدث بجسدها، لم تكن تهتم إلا بما آل إليه

حالها، فظلت منكسرة تتحاشى النظر لوجهها المشوهة بالمرآة المعلقة بالغرفة، وبدت تعتاد سجن العجز الذي قبعت فيه، ولا تهتم بالحياة حولها ولا كيف تمضي بها.

اتصل شادي بطبيبتها وأخبرها بما جرى لها، فقالت له:

-حسناً، حاول ألا تطيل مدة انتظارها للعملية عن سنة، فإن مضت، لا أدري كيف سيكون شكل الندبة، وهل من الممكن إخفاؤها؟ لستُ خبيرة في هذا، لكن أسرع يا شادي قدر ما تستطيع.

أجابها في تثاقل وهم:

-سأفعل إن شاء الله.

منذ تلك اللحظة بدأ جدياً في البحث عمن يساعده، فاتجه لأشخاص ومؤسسات، ووجد المدينة كلها في حالة قحط، كيف لا تكون كذلك وأعباء الحرب تثقل كاهل الجميع وتستنزف مواردهم.

كان يرى العصبة الناهبين لخيرات المدينة فيغضب، ويرى سكانها والنازحين من معظم المحافظات فيدعو لأجلهم، لأجل كل ربوع وطنه الذي أخذ ينزف دون توقف، الكل يتألم ويكتوي بنار الحرب بمختلف الطرق، والكل يضمد جراحه ليقاوم ويصمد ويستطيع العيش والتمسك بالحياة، حتى في شهر رمضان لم تنسهم الحرب ولم يحرّم المجرمون دماء الأبرياء؛ بل ازدادوا سفكاً لها لينضبوا معين الحياة في قلوبهم كل ما قرروا التمسك بأرضهم.

شغلته جراحات أخته ونفسيتها المتعبة وكده لأجل الاستقرار عن أخبار مدينته، ضياء هي أكبر همومه، لم يكن يمتلك تلفازاً في شقته أو خدمة الانترنت، كل ما يراه كان عبر شاشات المقاهي التي يلمحها في طريق العودة ليلاً بعد نهار شاق من العمل. لم ينتشله من بحر همومه الشخصية إلا صوت النصر يصدح في عدن وأصداؤها تتردد في أرجاء المكلا، هتافات الناس وأضواء الألعاب النارية وأجواء الفرح التي أطلقوها وهم يطوفون الشوارع وأبواق سياراتهم وتصفيقاتهم تملأ الأحياء، لم يخافوا أو يمتنعوا رغم وجود العصبة.

صفعة قوية تلقاها على وجهه.

ثلاثة أشهر مضت، كيف نسي رفاقه هكذا حين وصل للأمان؟ كيف نسي رفيقه رضوان؟ ماذا حل به؟ لم يتلقَ منه أية رسالة أو اتصال. حين أنهى عمله وغادر الورشة في ذلك اليوم أسرع يتصل به، رن الهاتف طويلاً دون رد، حاول أكثر من مرة ولم يجد أي جواب، تضاعف القلق والهم في نفسه، هو قلق على حالة ضياء فإذا باختفاء رضوان يزيده هماً، فكر طويلاً كيف يصل إليه، ليس في وسعه العودة إلى عدن حتى بعد إعلان تحريرها، فلا مكان لهم هناك، وليس في وسعه ترك أهله هنا خلفه، وحتى إن صحبهم، فأخته وإن تحسنت صحتها إلا أن نفسيتها متدهورة ولا تحب الاختلاط بأحد ولا رؤية أحد، ستتجنب أقربائه إن التقت بهم، لذا يتحتم عليه إن امتلك مالاً السفر بها إلى الخارج لا أن يعود إلى المجهول مجدداً. عاد مرة أخرى يتفقد هاتفه، من يسأله حتى يتمكن من الوصول إليه؟

قلَّب كل الأسماء على الشاشة، واختار رفاقها بالجامعة والمقاومة، اتصل بهم واحداً تلو الآخر، منهم من لم يجبه، ومنهم من أجابه بجهله عنه، تمتم في حزن:

-أرجو أن تكون بخير يا رضوان.

شهر آخر مضى من عمره، والقلق يفترس قلبه كل يومٍ، وعناء العمل يضني جسده، يخرج من منزله عند الساعة السابعة والنصف ليعود إليه عند منتصف الليل، مكرساً كل جهده لأجل تأمين الدخل اللازم لأهله والبحث أيضاً عمن يساعده لأجل سفر ضياء للخارج، بات مرهف الحس لكل شيء حوله، بعد شهران من عمله شعر بأنه نال ثقة صاحب الورشة بجدارته وأمانته، فكان يقدمه على كل عماله رغم أنه رجلٌ لا يكبره إلا ببضعة أعوام، بدا طيب وخلوق يقدم المجتهد فيقدره، ويمهل المهمل ثم يعزله إذا يأس منه، خطر بباله أن يطلب مساعدته، فتقدم إليه وقال له:

-سيدي، منذ أن انضممت للعمل بالورشة وأنا أشعر بأني لستُ في مكان عمل، بل في جو أسري نساعد بعضنا بعضاً.

ابتسم له الرجل وقال:

-أنت من أضفت إليه هذا يا شادي، تحاول توجيه رفاقك وإرشادهم وتحببهم في عملهم، لم أقابل شخصاً مثلك يحب عمله كما تفعل، وإخلاصك وتفانيك وطيبتك هي سبب ما تشعر به، وأنا سعيد بوجودك بيننا.

ابتسم خجلاً وقال:

-أحب أن أعلَّم وأقدم ما أستطيع تقديمه في هذا المجال، وأحمد الله أن أوصلني إليكم لأطور مهاراتي أيضاً.

غمز بعينه وقال:

-كأنك تود قول شيء، تفضل ولا تتردد يا صديقي.

ارتبك للحظات حين بانت نيته، ثم قال:

-هو طلب آمل أن تحققه لي.

-تفضل.

-شهر سبتمبر سيقبل قريباً ولا شك بأن أبواب الجامعة ستفتح، ولدي أختٌ صغرى أتمنى أن تلتحق بها، لذا أود أن أستدين منك مبلغاً لأجل دراستها لتشغل نفسها بمستقبلها وتشق طريقها وتحاول نسيان ما مرت به من أحزان.

هز الرجل رأسه، وقال مفكراً:

-في ظل الوضع الحالي لا أدري متى ستفتح الجامعة، وحسب علمي فإن إجراءات القبول تبدأ من الشهر الماضي، إلا أني سأمنحك ما طلبت يا شادي لتسأل بنفسك عن الجامعات وعما تريد معرفته لأجلها.

-شكراً لك سيدي.

ابتسم له الرجل ومنحه ما يريد وعندما أنهى عمله بدأ يسأل علَّه يعرف شيئاً عن الدراسة، فلم يجد بصيص أمل لاستئنافها في ظل الاحتلال القابع بالمدينة، شعر بالإحباط، ضياء تحب الدراسة ولا شك بأن لا مخرج لها من حالة الاكتئاب والعزلة إلا بها، هل ستطول فترة تعليق الدراسة هذه؟!

في إحدى الليالي، وعند منتصف الليل، استيقظت ضياء من نومها لتذهب إلى الحمام، فوجدت أمها غير موجودة قربها على فراشها، فظنت بأنها قد سبقتها إليه، فأعادت رأسها إلى وسادتها وانتظرت قدومها؛ لكنها تأخرت فقلقت، أسرعت تخرج لتتفقدها فسمعت صوتها وصوت شادي بغرفة الضيوف، كانت تعلم بأنه يتأخر في العودة منذ أن التحق بالعمل في السوق المركزي، أرادت أن تدخل لتعرف ما يجري معهما، فتوقفت حين سمعته يقول:

-لا أستطيع ذلك، يجب أن أسرع لأجل ضياء.

هنا تمهلت ثم نظرت إليهما خلسة، رأته يغطي معصمه الأيمن بمنشفة مبللة، وهو يقول في حزم، والألم يكسر قوة كلماته:

-الوقت ليس مناسباً للإجازات يا أمي.

ردت عليه في حزم:

-لو قلت لي بأنك ستذهب للسوق فقط فلن أعارض، والعمل بالورشة سيزيد من التهابها وتورمها، يبدو بأنك لم تكن منتبها أثناء العمل وأسقطت العدة عليها.

قال في انزعاج:

-نعم، كنت شارداً قليلاً لكني بخير يا أمي، أخبرني أحدهم بأن أتوجه لأحد المؤسسات الخيرية علها تمنحني شيئاً لأجل عملية ضياء وليتني لم أفعل، انفعل صاحب المؤسسة في وجهي ولستُ ألومه على ذلك، الوضع سيء، الجميع يسعى لأجل العيش، ولأجل النازحين من كل مكان بالبلاد، وأنا أطلب نفقات سفر وعملية يرونها شيئاً زائداً! هناك من هم أولى مني بهذا المال؛ لكن الأيام تمضي، أربعة أشهر مضت ولم أجد أحداً ولم أصل لشيء.

قالت في سرعة وانفعال:

-قلت لك أن تبيع ما بقي من مجوهراتي لأجلها؟

رد بحزم:

-وأخبرتك بأنها لن تصل لشيء.

-أنت لم تسأل كم من الممكن أن يكون ثمن ما تبقى كله.

-بل فعلت حين أجبرتني على أخذها، وأخبرتك وقتها أنها لن تفي بشيء.

-اذهب إلى محلات أخرى ربما...

قاطعها

-أمي، لا أريدك أن تبيعي منها مجدداً، يكفي ما أنفقتِه علينا قبل عثوري على عمل، وفي انتظار راتب أبي رحمه الله، لا أريدك أن تبيعي أي شيء بعد الآن.

نكست رأسها وهي تقول في قلق:

-لا أريدك أن تظل أسير القلق هكذا.

-سأطرق كل باب يمكنني الوصول إليه لأجلها.

فكرت للحظة، ثم قالت:

-لم لا تخبر السيد عبد الكريم؟ ربما يساعدنا.

-أنا خجل منه، الرجل بذل جهده لأجل إقامتنا وهو جريح، لا أستطيع أن أطلب منه المزيد.

سألته في حيرة:

-ماذا سنفعل إذن؟

تنهد ثم قال:

-ليس أمامنا إلا أن ننتظر قليلاً علَّ الظروف تتحسن وأستطيع العثور على أحدهم ليساعدني.

-إن شاء الله.

قال في حزم وهو يمسك معصمه:

-لكن، لا تقولي لي بأن أرتاح غداً، سأذهب لعملي وسأحاول تجنب حمل الأشياء الثقيلة.

أشفقت عليه وقالت:

-حسناً، سأحضر المزيد من الماء البارد لتخف قليلاً ولديَّ مسكنٌ في الثلاجة، أرجوك يا ولدي، انتبه لنفسك.

ابتسم لها وقال ليطمئنها:

-لا تقلقي كل شيء على ما يرام.

أسرعت ضياء تبتعد لتعود للغرفة، وألقت بنفسها على فراشها وبكت.
الكل يحمل همها وهي لم تفكر إلا في نفسها، أمها سهرت الليالي لأجل مداواتها وتنظيف جروحها وباعت من مالها لأجلها، وشادي انضم للمقاومة ليحميها ثم انسحب لأجلها أيضاً، وكافح شهوراً حتى تستقر أمورهم بعد معاناتهم خارج عدن، لم تعرف من مصاعبه إلا القليل ولم تسأل عن حاله ولو يوماً واحداً.
اغرورقت عيناها بالدموع، وحاذرت أن يرتفع صوتها، لامت نفسها، تجاهلت كل التضحيات لأجلها، وعزلتها انعكست عليها، لم تدري بأن ما بها لم يصب جسدها وروحها بل مسها أيضاً وضاعفت بتصرفاتها معاناتها، تذكرت تسريتها لها، هل هذا هو جزاء تضحيتها؟
هي عليها أيضاً أن تبذل ما في وسعها لأجلها لا أن توجعها، مسحت دموعها ونهضت من فراشها وتوضأت وصلَّت، ودعت ربها أن يقويها في محنتها، وأن تستطيع التأقلم والتعايش مع وضعها. قررت منذ تلك اللحظة الخروج من عزلتها لأجلها، وبدأ تحدي نفسها وتحدي الحياة الجديدة.
في اليوم التالي، فوجئت مها بها تستيقظ مبكراً لتعد الفطور، دُهشت، وقالت لها في قلق:
-كيف تشعرين يا ابنتي؟

ابتسمت لها، وقالت:

-أهلاً أمي، أنا بخير لا تقلقي، أشعر بأن الخدر سيستولي على مفاصلي إن قررتُ البقاء في الفراش طويلاً، لابد أن أساعدك.

-حسناً، لا ترهقي نفسك.

-أنا بخير لا تقلقي.

دهش شادي بدوره حين رأى تغيرها المفاجئ، لم يعلق، بل كان سعيداً في أعماقه، ثم مدت سفرة الإفطار على الأرض وجلست معها لتتناوله لاحظت الضمادة تلف معصمه، لم تعلق عليها لتزيد صموده حين رأت تحمله أمس، وإنما قالت له:

-شادي، هل سألت عن إجراءات القبول بالجامعة؟

سؤالها له كان كحلم، نظر إليها فاغراً فاه للحظة وعيناه تعلوهما الدهشة والذهول وهو يحدق بها، ابتسمت وقالت:

-ما بك؟

هز رأسه وقال:

-ماذا قلتِ؟

أدركت ما دار في أعماقه، شعرت بتأثير تصرفه عليها، أعادت سؤالها، فقال:

-لا... أعني نعم سألت، وقيل لي لا تزال الدراسة معلقة بسبب الحرب.

نكست رأسها وقالت في أسف:

-هذا مؤسف.

-لا تقلقي، علها تفتح قريباً، هناك مطالبات من الأهالي والطلاب بالعودة للدراسة.

-إن شاء الله، أريد دليل الجامعة، هل في وسعك السؤال عنه؟

ابتسم وقال في حماس:

-حسناً سأفعل لأجلك، وأظن الأنسب أن تلتحقي بجامعة حضرموت.

هزت رأسها مؤيدة وشكرته، ولما فرغوا من الإفطار أسرعت تلتقط الصحون، فقالت مها:

-دعيها أنا من سيفعل ذلك، اذهبي وارتاحي.

-يكفي ما نلته من راحة حتى الآن، لقد مللتُ، دعيني أعمل شيئاً.

ربت شادي على ركبة أمه فتركتها وانصرفت، فقال لها في حيرة:

-ماذا جرى؟

هزت مها كتفيها وقالت:

-لا أدري، لقد فاجأتني.

ابتسم في سرور وقال:

-أسأل الله أن يمنحك السعادة يا أختي ويزيل كل همك.

غادر المنزل وهو لا يزال يدعو لها، بينما أنهت ترتيب المطبخ، ثم حملت هاتفها وأخذت تتصفح الانترنت محاولة أن تشغل نفسها بالقراءة وتتجاهل ما بها، وحين مرت قرب المرآة المعلقة بغرفة النوم ارتبكت قليلاً، رأت خيالها فقط في تلك اللحظة، لن تستطيع الهرب من

عزلتها إلا إذا استطاعت النظر لنفسها في المرآة، ابتلعت ريقها في خوف وضربات قلبها تدق ضلوعها بعنف، رويداً رويداً اقتربت منها ووقفت أمامها وتطلعت لملامح وجهها الجديد؛ بشرة سمراء قليلاً حية نضرة في جهة وعين سوداء وهاجة بانفتاحها، وفي جهة أخرى داكنة منكمشة مجعدة وأجفانٌ اضمحلت فبدت العين صغيرة، كانت ملامحها الجديدة متناقضة تماماً مع عمرها وما كانت به ولن يكون من السهل إخفاؤها حتى لو استخدمت بودرة تجميل، اقشعر بدنها لمنظر وجهها، كادت تبكي حسرة؛ لكنها قاومت وقالت لنفسها في حزم:

-لقد عقدتُ العزم أن أواجه لأجل أمي وأخي ولن أتراجع.

كانت مها تلاحظها وتراقبها لتعرف سبب تغيرها فلم تجد.

ومضت أيام استمرت قدما في محاولة التغيير بين المطالعة وأعمال البيت، ولما حل وقت العصر، طلبت منها ضياء أن تصحبها لسوق الحي، ازدادت ذهولاً، تساءلت في نفسها:

-هل تدرك ضياء ما تفعله؟

ظنت بأنها سمعتها خطأ، وبأنها تطلب منها أن تشتري نقاباً حتى تخفي بها وجهها وتستطيع الخروج برفقتها متى ما أرادت دون أن تلمح الرعب في نظرات الناس أو الفضول يسطع من عيونهم، أطاعتها وهي لا تزال تظن بأنها تريد منها الذهاب بمفردها، ولما استعدت رأت ضياء قربها ترتدي عباءتها وحجابها وتكمل هندامها أمام المرآة كما كانت في عدن، لم تخفِ إصابتها أبداً، ازدادت انقباضة قلب مها من هذه الخطوة، ماذا سيحدث بعد هذا؟

صمتت ونفذت رغبتها، وخرجتا للسوق معاً لأول مرة

إنها المرة الأولى الذي تغادر فيها ضياء المنزل، قلبها كان يرتجف، الآن تشعر بأن عاصفة كبيرة من الدهشة والذهول والخوف ستتوجه نحوها، وستتراشقها كلمات من هنا وهناك، ستحاول اقتلاع ثباتها وربما ستوقعها أرضاً ستدمي قلبها أكثر مما هو متألم منكسر، الآن جميع أهل المدينة سيرون وجهها وليست هي أو أمها أو شادي وحسب؛ لكن تجد الدعم والمساندة، العالم الخارجي ليس بيتك الذي تبحث فيه الأمان، رأت مها لمعة الارتباك في عينيها فقالت لها:

-ضياء، هل نعود؟

انتبهت لها ونظرت لعينيها، رأت قلقها وخوفها عليها فعرفت ما جال بخاطرها، تذكرت عزمها وتضحية أمها وأخيها، فأمسكت بيدها مدت خطواتها وهي تحفز نفسها وقالت في نفسها:

-سأصمد، سأفعلها.

ثم قالت لأمها:

-لا، أريد أن أرى السوق.

تجولتا في أحياء المكلا وشوارعها، طافتا بمحل الملابس والمكتبات، ووجهها يشد المارة إليه منذ خروجهما من البيت حتى وصولهما للأسواق وشفاههم تتحرك بمجرد أن يتأملوها، ألبست وجهها ثوب اللامبالاة، حتى أرعبها قول طفل وهو يقول لأمه:

-من تلك المرعبة يا أمي؟

جذبته أمه من يده في ارتباك ومضت به، اعتقدت مها بأنها ستبكي أو ستطلب العودة للمنزل؛ لكن شيئاً من هذا لم يحدث، ظلت تمشي رغم أن كلمات الطفل أوجعتها، عادت لتحبس دموعها وتقاوم عواصف الحزن في نفسها وهي تردد في أعماقها:

-أحزن نفسي من قول طفل نطق حقاً والكبار لم يقلوا شأناً عنه؟ أأسمح للكلمات بأن تؤدي بي إلى وادي الأحزان لأدفن نفسي وأدفن أهلي فيه معي؟ لن أحزن، وسأصمد سأفعلها، لأجلهما.

طلبت منها أن تصحبها إلى البحر، رافقتها، وكل النظرات لا تزال تتعلق بها أينما حلت وهي تربط على قلبها وتحاول أن تتجاهل ما يزعجها، فقط لأجلهما.

لم تدرِ كيف تعيد المحن تشكيل الإنسان، وتنحت الظروف روحه قبل مظهره، تقلَّبه، تصنع منه إنسانا آخر ليعيش مع ظرفه الحالي، تجعله أكثر مرونة وصبراً وتحملاً على تجرع المزيد، أو ينهار ويتلاشى، وحدها القوة الإلهية التي تستطيع منحه الصمود.

جلست عند البحر برفقتها لتسترجع ذكرياتها في عدن وفي هذه المدينة التي لم ترها قبل الآن، ثم تمتمت:

-أقوالهم وثرثرتهم لا تهمني، لا تهمني... اللهم إني أسألك أن تمنحني الصبر وترزقني الرضا لأجل أمي وأخي اللذين ضحيا بكل شيء لأجلي، فليس لي في هذه الدنيا غيرهما، وليس في زمن الظلم إلا أنت، اللهم امنحني القوة لأمضي في هذه الحياة بما يرضيك.

(...نعم ... لم أر هذه المدينة في حياتي ... لكنها هادئة جميلة، أهلها أهل سخاء وكرم، طيبون في معاملتهم وإلا ما كان أخي ليجد أناسٍ مثل السيد عبد الكريم، ولا ما وجدت فتاة بطيبة سحر)

كانت ضياء تتحدث في نفسها وهي تلتقط نسمات الصباح والبحر المطل من البعيد عند شرفة الطابق الثاني وتسمح لها بالتغلغل في صدرها وتحضن قلبها كأنما تحاول أن يخفف شيئاً من حزنها، عادت تواصل حديثها :

- لم أكن أعرف بأن ذلك الكريم هو والد ذلك المتعجرف، ليته فقط لم يكن كذلك.

لحظتها قطعت تفكيرها حين أحست بأحدهم يمسك بكتفها فالتفتت وابتسمت.

كانت صديقتها سحر الذي بادلتها الابتسامة وهي تقول:

- تحبين هذا المكان كثيراً، نسمات الصبح جميلة.

فاتسعت ابتسامتها وهي تهز رأسها مؤيدة، بينما قالت سحر:

-هيا بنا، ستبدأ المحاضرة بعد قليل.

وجذبتها من يدها برفق لتمشيا معا، بينما قالت ضياء في نفسها وهي تتأمل وجه سحر في ابتسامة:

- أنتِ نسمة على قلبي في هذا المكان يا سحر، كنسمة البحر تماماً.. لو لم ألتقيكِ، كيف سيكون حالي بوجود ذلك الأرعن؟ مهما نقلتنا الأرض إلى أماكن مختلفة بأقطارها دائماً سنجد أرواحاً تشبهنا، وأنتِ روحي يا سحر.

ثم أحكمت قبضة يدها بيد صديقتها لتسرعا معا نحو القاعة وعلى وجهها السرور، وهي تواصل حديثها في نفسها:

- لأجل أمي، لأجل أخي، لن أدع للأحزان سبيل لتحتل قلبي... قد لا أتمكن من النسيان؛ لكني لن أدع تضحيتها لأجلي تذهب سدى.

في تلك اللحظة، دلف طارق ورفاقه إلى القاعة ليجلسوا بأماكنهم، فرآهما تدلفان للقاعة، وملامح وجهها قد امتلأت سعادة وأمل رغم ذكريات الألم التي يرددها على أذنيها كل يوم، تساءل في نفسه في حيرة:

- كيف لها أن تكون كذلك رغم أحزانها؟ كان يجب أن تكون بعد معاناة الحرب وذكرياتها ضعيفة النفس، مهزوزة الشخصية، الغريب أني لا أجدها إلا قوية رغم كل ذلك... هل وجود سحر يمنحها ذلك؟... لا أعتقد، فقد كانت حزينة منطوية منذ أن أخبرتها بأن أبي هو مالك العمارة التي يقيمون فيه شقة بها، ولا تتحدث إلا مع سحر، هناك شيء في أعماق هذه الفتاة يمنحها تلك القوة للصمود والتقدم، ترى... ما هو؟

وحين جلس في مقعده، عاد يفكر في نفسه في ضيق:

-لا، قوة هذه الفتاة وشجاعتها تزعجاني جداً، لابد أن أجد طريقة أجعلها تدرك بها مكانتها الحقيقة هنا، لابد أن أجدها..

*****